مجلة
جامعة المهرة
للعلوم الإنسانية
مجلة علمية محكمة نصف سنوية
العدد الثامن عشر- محرم 1447هـ- يوليو 2025م
ISSN: 2707- 8655
EISSN:2707-8663

فضاء المهمش في الرواية اليمنية

د. عصام واصل*
esam_wasel@tu.edu.ye

تاريخ الاستلام: 14/ 1/ 2025م	تاريخ القبول: 27 / 1 / 2025م

ملخص:

يعالج هذا البحث فضاء المهمش في الرواية اليمنية، باعتباره فضاءَ سُكْنى أو فضاء انتقال للعنصر المهمش (الأخدام)، الذي يعاني من جملة من الممارسات التمييزية على صعيد العلاقات والمكان والحقوق، من أجل معرفة كيفية تشكلات هذه الأمكنة، والتقاطبات التي تحكمها، ورؤية العالم التي تخلق دلالة متجانسة بين الشخصيات، وإحساسها بالفعل وردِّ الفعل في كل فضاء من الفضاءات التي تسكنها أو تنتقل عبرها، وقد كان ذلك في مجموعة من الروايات اليمنية التي امتدت بين عامي 2008 و2021، مستعملًا منهج النقد الثقافي والبنيوية التكوينية للقراءة والاستكشاف، وقد تم تقسيمه إلى مقدمة ومبحثين، ونتائج، تطرق المبحث الأول إلى فضاء الإقامة، من خلال استكشاف أمكنة الإقامة وعلاقة الشخصيات بها، وما تفرزه من تقاطبات وعلاقات ووجهات نظر متبادلة بين الذات والآخر على صعيد القيم والسلوكيات والتصورات، وتناول المبحث الثاني فضاءات الانتقال بوصفها عاملًا لمعرفة نظرة الآخر وعلاقاته بالذات، ومن ثم أثر هذا الفضاء على تشكيل سلوك الذات والآخر، وتوصل إلى أن فضاء المهمش لم يكن مجرد فضاء عابر في الروايات، بل كان تجربة معاشة، طاردة، تخلق المعاناة، وتنعكس تبعاتها على الشخصيات المهمشة. وقد كان الذات (المهمش) يضطر للانتقال إلى فضاء الآخر من أجل العمل وتدبير قوت يومه، وكان -من أجل ذلك- يؤدي أعمالًا توصف بالمنحطة والقذرة، مثل: التسول، ومسح الأحذية، وغسيل السيارات، أو من أجل السرقة.

الكلمات المفتاحية: الرواية اليمنية، التقاطبات المكانية، فضاء الإقامة، فضاء الانتقال، الخطاب السردي.

* أستاذ الدراسات الأدبية المشارك، قسم اللغة العربية، كلية الآداب، جامعة ذمار، الجمهورية اليمنية. https://orcid.org/0000-0001-8403-8695.

© نُشر هذا البحث وفقًا لشروط الرخصة Attribution 4.0 International (CC BY 4.0)، التي تسمح بنسخ البحث وتوزيعه ونقله بأي شكل من الأشكال، كما تسمح بتكييف البحث أو تحويله أو الإضافة إليه لأي غرض كان، بما في ذلك الأغراض التجارية، شريطة نسبة العمل إلى صاحبه مع بيان أي تعديلات أُجريت عليه.

https://doi.org/10.71311/.v6i1.217

The Space of the Marginalized in the Yemeni Novel

Dr. Esam Wasel *

esam_wasel@tu.edu.ye

Accepted: 14 - 1-2025	Received: 27 - 1 -2025

Abstract:

This research addresses the space of the marginalized people in the Yemeni novel, as a space of transition for the marginalized people (the Akhdam), who suffer from a series of discriminatory practices in terms of relationships, place, and rights. The aim is to understand how these spaces are formed, the polarities that govern them, the worldview that creates a homogeneous meaning among the characters, and their sense of action and reaction in each of the spaces they inhabit or travel through. This was done in a collection of Yemeni novels spanning the years 2008 to 2021, using the methods of cultural criticism and the structural composition of reading and exploration. It is divided into an introduction, two chapters, and results. The first chapter addresses the space of residence by exploring places of residence and the characters' relationships with them, and the polarities, relationships, and mutual viewpoints they produce between the self and the other in terms of values, behaviors, and perceptions. The second chapter addresses spaces of transition as a factor in understanding the other's perspective and relationship with the self, and thus the impact of this space on shaping the behavior of the self and the other, he concluded that the space of the marginalized was not merely a transient space in the novels, but rather a lived, repellent experience that creates suffering, the consequences of which are felt by the marginalized characters. The self (the marginalized) was forced to move to the space of the other in order to work and secure his daily sustenance. To do so, he performed jobs described as degrading and dirty, such as begging, shining shoes, washing cars, or stealing.

Keywords: Yemeni novel, spatial polarization, space of residence, space of transition, discourse

* Associate Professor of Literary Studies, Department of Arabic Language, Faculty of Arts, Dhamar University, Republic of Yemen.

© This material is published under the license of Attribution 4.0 International (CC BY 4.0), which allows the user to copy and redistribute the material in any medium or format. It also allows adapting, transforming or adding to the material for any purpose, even commercially, as long as such modifications are highlighted and the material is credited to its author.

مجلة
جامعة المهرة
للعلوم الإنسانية
مجلة علمية محكمة نصف سنوية
العدد الثامن عشر- محرم 1447هـ- يوليو 2025م
ISSN: 2707- 8655
EISSN:2707-8663

مقدمة:

لم تحظ الرواية اليمنية بالدراسة المواكبة لسيولة موضوعاتها وطرائقها الفنية، ومن ثمَّ سيولة الإصدارات المتلاحقة في السنوات الأخيرة، إلا أنها -رغم ذلك- لم تتوقف عن التجديد والتجريب وابتكار موضوعاتها المتصلة بواقع المجتمع المتخيل.

إن من بين أبرز تلك الموضوعات التي تشتغل عليها الرواية اليمنية يأتي فضاء المهمش، والمقصود بفضاء المهمش، في هذا السياق، مجموع عناصر مكان إقامة السود (الأخدام)، وما يستتبعه من علاقات وقضايا وملابسات، وكذلك مجموع عناصر مكان تنقلاتهم الذي تتمظهر فيه هامشيتهم مقارنة بالآخر، وقد ظهر هذا الفضاء فاعلًا في مجموعة من الروايات اليمنية، منها: رواية (طعم أسود.. رائحة سوداء) 2008، لعلي المقري، ورواية (حصن الزيدي) 2019 للغربي عمران، ورواية (المنبوذون) 2021 لرياض معطاس، ورواية (غير مشروعة) د. ت. لجمال الشعري، ورواية (زهر الغرام) 2020 لأحمد قاسم العريقي. وهي كلها روايات تتخذ من الأسود الموصوف في بعضها بـ(الخادم)، وفي بعضها الآخر بـ(المقرع) شخصية محورية أو ثانوية فاعلة في صميم الحدث، وتتخذ من قضاياهم وعلاقاتهم بالآخر المتسيد والمتسلط موضوعًا لها، إنها روايات يمكن الانطلاق منها لاستكشاف فضاءات هذه الفئة المقصاة من حياة المجتمع، ومعرفة شيء من المتخيل المرتبط بها، وكذلك محاولة استكشاف كيف تعيش وفي أي بيئة تعيش، من منطلق أن الفضاء هو الشخصية، والشخصية هي الفضاء، في واحدية السمات والتفاصيل.

فضلا عن ذلك، فإنه يكشف عن شيء من علاقة الذات بالآخر، ومكانة كل منهما بالنسبة إلى الذات نفسها، أو إلى الآخر أيضًا، لاسيما أن المكان (الفضاء) يخلق تقاطبية مركبة، بين الذات والآخر، وبين ثقافة الذات وثقافة الآخر، وأحلام الذات وأحلام الآخر، ومعاناة كل منهما؛ لأن كل فئة تقع في حيّز جغرافي معين يُجسّد متوالية من القيم الثقافية، كالأعلى والأدنى، والمنحط والسامي...، وهي قيم مكانية في الأساس يجسدها الوعي الثقافي عند إحساسه بقيمة المكان المتصلة به من حيث الوعي ومن حيث العلاقات الاجتماعية التي تجسده وتتجسد من خلاله، وهذا الوعي ما هو إلا انعكاس لشعور الشخصيات، لاسيما الشخصيات التي تتغذّى من موروث ثقافي قائم على الفصل العنصري والبناء الطبقي وما تنتجه من تبعية في العلاقات بين الأسود (الخادم - العبد - الهامش) والأبيض (السيد - المركز).

على أن البحث يعي تمام الوعي الفرق بين المكان والفضاء، وما يستتبع كل منهما من اتساع أو ضيق، أو ما يرتبط بكل منهما من علاقة الجزء بالكل أو العكس، ومع ذلك فإنه سيستعمل الفضاء ليدل على المكان في معظم الأحيان، لا لشيء إلا لأن الفضاء يحوي المكان في تعدد عناصره وأجزائه في الروايات المدروسة.

كما يمكن الإشارة إلى أن البحث لم يعثر على دراسات سابقة تطرقت إلى فضاء المهمش في الرواية اليمنية، أو في المدونة المدروسة، وهو ما جعل الموضوع بكرًا، وعزز من فكرة البحث فيه لمعرفة كيفية اشتغاله، ودلالات هذا الاشتغال.

وعليه، سيحاول البحث الإجابة عن الآتي:

كيف يتجلى فضاء إقامة الذات (المهمش) وسكناه؟ وما التقاطبات التي ينتجها؟ وما العلاقات التي يفرزها؟ وكذلك كيف يتجلى المكان الخاص بالآخر (مكان الانتقال)؟ وما الأنساق الثقافية التي تتحكم به أولًا، وبحركة الشخصيات ثانيًا؟ وما هي رؤية العالم التي تخلق وعي الذات بالواقع القائم، وهل تستطيع أن تتصور واقعًا ممكنًا أو تنخرط فيه فعليا؟

ومن أجل الإجابة عن ذلك فإن البحث سيعتمد النقد الثقافي منهجًا للمقاربة والاستكشاف، وكذلك سيشتغل على ما يتطلبه البحث من آليات وتفاصيل مرتبطة بالبنيوية التكوينية ما أمكن.

وسينبني البحث من مقدمة ومبحثين ونتائج، سيكون محور المبحث الأول فضاء الإقامة (فضاء الذات) بصفاته وأشكاله وإفرازاته، وما يتمظهر فيه من أفعال وعلاقات، ثم سيكون المبحث الثاني خاصًّا بفضاء الانتقال (فضاء الآخر) من أجل معرفة العلاقة الرابطة بين هذا الفضاء وفضاء الذات من جهة، وعلاقة الذات بالآخر فضائيًّا من جهة أخرى. وسيكون ذلك على النحو الآتي:

المبحث الأول: فضاء السكن (فضاء الإقامة)

يأتي فضاء الإقامة، في وضعه الطبيعي، ليمثل الاستقرار والسكينة والحميمية والانتماء؛ لأنه يكون مسكونًا بالذكريات، حتى أن أبأس بيت يكون جميلًا -كما يؤكد باشلار (1987)؛ إذ إنه يرتبط بالذاكرة والوعي الأول بالحياة والعلاقات الإنسانية، ويرتبط برعاية الأهل في مراحل النمو الأولى للإنسان، لكنه يرتبط في ذاكرة الشخصيات المهمشة (في الروايات المدروسة) بغياب الألفة والعذابات والآلام الناتجة عن العنصرية والاغتراب والاضطهاد والتنمر الموجه نحوهم من قبل الآخر (النسق الثقافي الاجتماعي السائد كله) الذي يكون متعاليًّا دومًا من منظور سردي، ويخلق، دومًا، لدى الشخصيات إحساسًا بالدونية والعبودية والفقر وعدم امتلاك المكان، إذ تقول الساردة في رواية (زهر الغرام) -مثلا-: "لا نملك أرضًا أو حتى شجرة ولا نبني إلا أكواخًا صغيرة في القرى، نحن عبيد أحرار، لكنهم يروننا أدنى من ذلك" (العريقي، 2020، ص 24، 25).

وهذا الفضاء هو فضاء الذات، ويكون استثنائيًّا يختلف عن فضاء الآخر (الأبيض - المركز)، يخلق حركة الشخصيات ويؤسس لمعرفتها كيف تتحرك ونتائج حركتها، وتكون مسارات تأملاتها مرتبطة به وناتجة عنه ومتصلة به دومًا، حتى أنه يخلق وعيها الكلي بالآخر، وقبل ذلك يخلق وعيها بذاتها، ويرسخ تفاصيل حياتها من واقع ما يتأثّث به هذا الفضاء الذي تسكنه من أشياء وعلاقات.

فإذا كان الآخر (المركز) يسكن في فضاءات يسودها التجانس والتناغم والتآلف بين مكوناته، وكذلك في بيوت تسودها المودة والتكافل والألفة، فإن الذات (الهامش: المهمش) يسكن في فضاءات يسودها التجانس أيضًا، لكنه تجانس لا يُرَسِّخ المودّة والتكافل والألفة، بل يخلقُ نوعًا من التجمعات البشرية التي تنفصل عن التجمعات المقابلة لها كليًّا، من حيث اللون والوعي الكلي بالعالم والثقافة والعلاقات وترتيب المساكن والتفاصيل المتعلقة بها أيضًا، إذ يتخلّق من خلال هذا التجانس المكاني (بين كل مكان ومكوناته مقابل المكان الآخر ومكوناته) ما يمكن تسميته، -وفق تعبيرات بنيوية تكوينية- برؤية العالم التي تُوجِّد هموم كل طبقة

ورؤيتها نحو الأخرى وتُميّزها عنها (أسعيدي، وبختي، 2029، ص504-507)، وتخلق من ثمَّ تعارضًا بين كل فضاء من هذه الفضاءات في مقابلته بالفضاء الآخر، واختلافه عنه قِيَمًا وشكلًا ومكونات، إذ مردُّ التعارض إلى الاختلاف بين طبيعة كل فضاء وساكنيه بالمقابل (جولدمان، 1993، ص 35)، على اعتبار أن بيان طبيعة المكان، هو بيان لطبيعة الإنسان الساكن فيه نفسه؛ لأن مكان الإنسان امتداد له (بحراوي، 2009، ص43).

وبمعاينة الأمكنة في الروايات المدروسة، وربطها بالمهمش (الأسود - الخادم - المقرع) يلحظ أن هذه الأمكنة تسير في هذا السياق، وتشكل رؤية عالم موحدة من قبل مجموع الفئة المهمشة، وهو ما تسعى إلى إثباته من خلال وصفها لمساكنها وأمكنتها بالثانوية التي تفتقر إلى الثبات والانضباط والديمومة، فضلًا عن قذارتها وقذارة الفعل القائم فيها؛ إذ مساكنها دومًا تكون في هوامش المدن والقرى وأطرافها وممرات السيول وحواف الوديان مع المخلفات والنفايات، في (أكواخ) مصنوعة من الكرتون والصفيح والإطارات والمخلفات، أو في قرى مستقلة نائية لا يسكنها إلا هُم، وهي غير صالحة للسكنى:

"حَكَمَ على قومنا بأن يكونوا خُدَّامًا للمجتمع. وزّعَهم على كل البلاد، جعل منازلهم خارج المدن والقرى، وهو أول من أطلق علينا اسم (أخدام)، ومنذ ذلك القرار ونحن نعيش منبوذين متناثرين في أطراف المدن والقرى، حتى الذين يعيشون داخل المدن اليوم يقطنون في تجمعات سكانية قذرة وغير صحية بالقرب من المستنقعات وأمكنة تجمع القمامة والسوائل، وحتى لا ينافس الأخدام أحد في أمكنة تجمعاتهم القذرة داخل المدن، أطلقوا عليها (المحاوي)" (معطاس، 2021، ص 8).

إن تحويل هذه الفئة إلى خُدَّام للمجتمع، ومهمشين يقطنون في الفضاءات الهامشية -كما يقول الملفوظ- عقاب لهم بعد سيادتهم وحكمهم لمناطق عدة، وكان من نتائج هذا العقاب أن تمّ نبذهم، ودفعهم إلى السكن في المحاوي وأطراف القرى والمدن، في مساكن تتصف بالقذارة والقرب من المستنقعات وأمكنة تجمع القمامة والسوائل، في تجسيد مركب لحالة ما قبل (حالة السيادة)، وحالة ما بعد (العبودية)، وما يترتب على هذه الحالة من تناثر وتفكك وتباعد على صعيد المكان، وعلى صعيد العلاقات التي تربطهم ببعض وبالمجتمع ككل.

إن العلاقات فيما بينهم، وإن بدت للوهلة الأولى علاقات يشوبها التآلف، تكون علاقات متنافرة قائمة على الاستغراق في الجنوح الأخلاقي وغياب الوعي الممكن الذي يقوم على التفلُّت من هذا الوضع الذي يوفره لهم المكان الذي يسكنون فيه؛ إذ هو مكان يوفر الحرية المطلقة وعدم الانضباط -من وجهة نظر الروايات-، وهي حرية هشّة تكاد تتجانس مع المساكن نفسها في هشاشتها وعدم تماثلها مع كل بناء منضبط، إنها مساكنٌ من الصفيح، والعُشش، والكرتون والإطارات، ومخلفات كثيرة، ترسخ مبدأ الوعي القائم الذي يعني -في هذا السياق- إدراك هذه الفئة لوضعها الراهن مكتفية به وبوصفه كما هو دون أن تعمل على التغيير (أسعيدي، وبختي، 2029، ص 510)، بل إن بعض الشخصيات تسعى إلى الانخراط في هذا الوضع والبقاء فيه، يقول السارد في (طعم أسود.. رائحة سوداء):

"شعرت... أنني مضيت في طريق مختلف، حين قررت الهرب مع الدغلو في قرية الوادي، وجئنا لنحوي طرف هذه المدينة، في العشش الصفيحية والكرتونية بين الأخدام" (المقري، 2011، ص 6).

إن هذا الملفوظ يرسم بدقة عالية هذا الوضع القائم (الهامشية والهشاشة والضعة والضعف...)، ومن ثم فضاء المهمش (المحوى = طرف المدينة)، ومكونات أبنية هذا المحوى الهشة والطارئة (عشش صفيحية وكرتونية)، وكذلك سكان هذا المحوى (الأخدام - المهمشين)، كما يؤكد من زاوية أخرى وجهة نظر السارد نحو سكان هذا المحوى من خلال اللفظة العنصرية المكثفة: (أخدام)، وهي اللفظة التي تشير إلى نسق ثقافي مضمر من العنصرية والإقصاء والإحساس بالغيرية على صعيد النوع واللون والفضاء والوعي الثقافي، وهو الإحساس الذي يكاد يتكرر في الروايات المدروسة بكيفيات مختلفة وبالمعنى ذاته، ومن ذلك ما يقوله السارد في رواية (حصن الزيدي):

"أخدام سود... وقد بنوا مجموعة أكواخ متجاورة تحاذي الطولقة الكبيرة، في البدء لم يهتموا لوجودهم. لكن توافدهم استمر وأكواخهم تكاثرت. ومع الأيام تحولت الأكواخ إلى دُرْم، ثم انتشرت الأدرام على امتداد حافتي الوادي" (عمران، 2019، ص 10).

فسكناهم تتكون من مجموعة أكواخ، تقع على حافتي الوادي، بما توحي به (حافتا الوادي) من هامش مكاني ثانوي، مقابل مركز الوادي الذي يعد مكان سُكنى الآخر، وتمركزه وتحركاته، مما يعني أن ثمة مركزًا مقابل هامش، وثمة سلسلة من التقاطبات التي تفرزها، مثل: (دخيل - غريب - طارئ - أسود/ خادم - هش ثانوي..... إلخ)، وهي تقاطبات توضح العلاقات بين سكان المركز وسكان الهامش، وتنقل رؤية الذات للعالم مقابل رؤية الآخر له أيضًا، كما تعكس ضمنًا -من خلال دالّ (أكواخ) الطارئة- منازل المركز التي تدل على الثبات والبقاء والاستمرارية والصلابة والقوة، فضلًا عن أن هذه الأكواخ تكشف ما بداخلها ولا تستره، كما أنها لا تقي سكانها من البرد ولا الأمطار، يقول السارد في رواية (المنبوذون):

"تتألم كثيرًا عندما تنظر إلى حياة قومها في تلك القرى التي بنوا مساكنهم فيها من الخيام وعلب الصفيح، وعشش لا تقيهم برد الشتاء ولا أمطار الخريف، غرف من أحجار صغيرة متراصة ليست مُثبَّتة بأي مواد، بإمكان المار بجانبها رؤية من في الداخل" (معطاس، 2021، ص 9).

تلك الصورة الهامشية والهشة للإنسان ومكانه تظهر أيضًا في رواية (غير مشروعة)، من خلال قول السارد:

"أسكنُ تلًّا أعلى الهضبة.... مع مجموعة من أكواخ العائلات المهمشة، يكون كوخنا المبني من الطوب والزِّنْق (صفائح الحديد)، وتُسَوِّرُه مجموعة من إطارات العربات المستهلَكة، وتغطي منفذ كوخنا قطعة من القماش، كما هو حال جيراننا" (الشعري، د.ت، ص 16).

إنها مساكن (أكواخ) ثانوية لا تعدو أن تكون تجمعات بشرية تشير إلى تجانس سكانها، وهو التجانس الذي يعني الفرز والفصل وتحديد الذات بوصفها هامشًا، والآخر بوصفه مركزًا، انطلاقًا من هامشية السكن نفسه، لاسيما إذا أدركنا أن المكان هو بناء فارز للذات والآخر، ومحدد لصفات كل منهما، انطلاقًا

من فكرة الغيرية النابعة من التمايز في المكان والفضاء (المنصوري، 2014، ص12)، وهي مساكن يمكن النظر إليها، ثقافيًّا، من زاوية أنها تشير إلى البناء الهرمي للمجتمع، وتعني النبذ والتناثر وحيوانية سكانها - كما تصور الروايات- فالمحوى في الروايات، كما هو في الواقع المرجعي، مكان تجمع الحيوانات، والأبقار منها تحديدًا، وهو، كما تصفه الروايات، "موضع الكلب"، وهو مكان تجمع القاذورات: "بدأت أسئلة كثيرة تثيرني عن العقل والوعي؛ عن الإنسان وهو يعيش بين كومة من القاذورات" (المقري، 2011، ص 118)، فضلًا عن كونه يأتي متموضعًا دومًا في الأطراف، والأطراف هوامش تفرز معها سلسلة من ثنائيات الإقصاء والتنافر وما يرتبط بذلك من صور تدل على القذارة والانحطاط والقبح:

"منذ ذلك القرار ونحن نعيش منبوذين متناثرين في أطراف المدن والقرى، حتى الذين يعيشون داخل المدن اليوم يقطنون في تجمعات سكانية قذرة وغير صحية بالقرب من المستنقعات وأمكنة تجمع القمامة والسوائل، وحتى لا ينافس الأخدام أحد في أمكنة تجمعاتهم القذرة داخل المدن، أطلقوا عليها المحاوي، والمحوى هو (موضع الكلب)" (معطاس، 2021، ص 8).

إن هذه الوضعيات تخلق وعيًا حادًّا بمكانة الذات: السيد والشيخ والعاقل والقبيلي الشريف الطاهر، والنظيف والقذر.... إلخ، وما يستتبعها من صفات تقابلها بالضرورة، مثل: العلو والارتفاع والسمو. وتخلق وعيًا عكسيًّا حادًّا بمكانة الآخر: العبد والخادم والمهمش والزنوة (اللقيط) والبسيط والقذر ذي الرائحة الكريهة...، فالأول مالك والثاني مملوك، بل إن الأول سيد والآخر عبد، ويعني بالضرورة أن الأول بمكانه وزمانه وعلاقاته الاجتماعية ضدٌّ للثاني، وأن الأول -بحسب الروايات- سامٍ والثاني منحطّ (قذر برائحة كريهة وانحراف مضاعف)، وذلك كله يخلق نسقًا ثقافيًّا "تسوده عنصرية الجاه والبشرة" (الشعري، د.ت، ص 33) -بحسب رواية غير مشروعة-.

إن المكان بهذه الكيفية يخلق -إذن- نسقًا ممتدًا من الدلالات التي تعزز عبودية الذات وثانويتها، مقابل مركزية الآخر ومحوريته، فضلًا عن أنها تحيل إلى النسق المضمر القابع خلف هذه الدلالات، وهو نسق الاستعباد والهيمنة الذي يعزز لدى الذات آخريته، ولدى الآخر ذاتيته المفرطة، على أن هذه الدلالات تنطلق في الأساس من كونها مَحَاوٍ وأدرام تقع في الهوامش والأطراف، لا في المراكز (القرى - المدن - الوديان).

على أن مكان تجمع الأخدام قد يحمل مُسمًّى (قرية)، لكن هذه القرية لا تختلف في وصفها وأوضاعها عن المحاوي والأدرام، بل إنها تحمل مسمى يدل على الوضاعة والاحتقار (أرض السَفَلَة)، وتعكس الوضعية السلوكية لساكنيها من خلال هذا التسمية، ووجهة نظر الآخرين نحوهم، يقول السارد في (المنبوذون):

"في ذلك العهد كان زعيم الأخدام يُدعى (بارق)، يقال إنه كان من الحكماء.. عندما رأى الأخدام يُطردون من كثير من الأمكنة، ويموتون جوعًا ومرضًا، بحث عن مكان لا يرتبط بعارية، فجاء بعشيرتنا إلى هنا.. سبب اختياره لهذا المكان، أولًا: أنها أرض غير قابلة للعمارة، ولا الزراعة، وليست ترابية بالكامل، ولا صخرية، مجرد أرض جدباء، نتوء صخرية متفرقة، وثانيًا: أنها تتوسط ثلاث محافظات (إب، تعز، الحديدة)، وهذا السبب سيمكنه من نسب هذه الأرض إلى أي محافظة يريد في حال ظهر مدَّعٍ بملكيتها من أي من المحافظات

الثلاث، ثم استغل تفاخر القبائل واعتزازهم بأنفسهم وأنسابهم وأعراقهم، فأطلق عليها اسم قرية (أرض السَفَلَة)" (معطاس، 2021، ص7).

إن هذا الملفوظ يفرز نسقًا وصفيًّا للأخدام في حال ارتباطهم بالمكان الذي يسكنون فيه، وهو نسق يدل على التيه والاغتراب والألم والشتات، من حيث وقوعه في أرضٍ "غير قابلة للعمارة، ولا الزراعة، وليست ترابية بالكامل، ولا صخرية، مجرد أرض جدباء، فضلًا عن وقوعها المشتت بين ثلاث محافظات"، فضلا عن فرزه لنسق تقاطبي يشير إلى الوضعية العنصرية القائمة بين الذات (الأخدام)، من حيث هم من أصول (أعراق) وضيعة، ولا يجدون ما يتفاخرون به من نسب وجاه، والآخر الموصوف في الملفوظ بـ(القبائل) التي يتفاخر منتسبوها بالعرق والنسب، ومن حيث تسمية الفضاء الذي اختير ليسكنوا فيه، لقد أطلق على هذه القرية (أرض السفلة)، ليدل على امتدادات هذا النسق وما ينطوي عليه من غبن، وفرز عنصري، ناتج عن المعنى الجوهري لكلمة سفلة، وهي جمع سافل، موصوف بها الأخدام سكان هذا الفضاء، ويعني مفردها: دَنيء، عديمُ الاسْتِقامة والأَخلاق، لا سُمُوَّ في تَفْكيره ولا كرامةَ عنده، ساقِط، نَذْل، دونٌ خسيسٌ (عمر، 2008: 1074/2). وهذه الصفات وإن كانت صفات للمكان نفسه، فإنها صفات لساكنيه أيضا، من منطلق أن وصف السكن هو وصف لساكنيه، ولأن مكان الإنسان هو امتدادٌ له بدرجة محورية (بحراوي، 2009، ص 43).

إن مكان السكن (المحوى - الدرم - القرية) في الروايات المدروسة سكن عذاب وفرز وفصل عنصري، يعكس -بالضرورة- صورة حية للفئات التي تعيش فيه، ويجسد اشتغالها وحدود هذا الاشتغال، كما يجسد الوعي القائم لهذه الفئة بدقة عالية، إذ هي شخصيات تعيش داخل هذه التجمعات الموصوفة بـ(القذرة) دون أن تفكر بمغادرتها، بل إنها تبني لها في هذه التجمعات أكواخًا تعمل على هيكلة فارزة تكاد توحي بالحيوانية المفرطة فيما تفرزه من دلالات، إنها تأكل في هذه الأكواخ، وتنام فيها، وتمارس الجنس البوهيمي فيها أو بجوارها، كما أنها مستسلمة للبقاء فيها ولا تفكر بجدية في الانتقال بشكل جماعي أو حتى في تغيير هذا النمط المعيشي:

"مساكنهم داخل (المحاوي) التي في المدن لا تختلف عن مساكن القرى كثيرًا، يؤرقها عندما ترى قومها يقضون حاجاتهم خلف مساكنهم؛ بسبب عدم امتلاكهم حمامات" (معطاس، 2021، ص 9).

ولا يقتصر الأمر على هذا الفعل في جوار هذه الأكواخ والعشش، بل تفعلها بداخلها على مرأى ومسمع ممن يسكنون معها في العشة أو الكوخ نفسه:

"في الصباح الباكر استيقظتُ على خرير بول عيشة ورائحة برازها النفاذة. فتحت نصف عيني. كانت تجلس مقرفصة، لافة نصف ثوبها الأسفل على خصرها، وتحتها صحن قصديري صغير لاستيعاب ما ينزل منها. أحست بحركتي، إذ أدارت رأسها نحوي. لم تأبه، وظلت على وضعها" (المقري، 2011، ص 42).

وهذا الملفوظ لا يهتم بالفعل نفسه من حيث هو فعل مخالف للعادة والطبيعة، بل يحاول أن يؤكد على أن هذه الأكواخ والمحاوي والأدرام تفتقر إلى أبسط مقومات العيش، ولا توفر الأمن النفسي، ولا الطمأنينة

لأهلها، ولا الخصوصية لساكنيها، فضلا عن محاولة تقديمه لهذه الأمكنة بشكل تختلط فيه الأمور الطبيعية بالأمور غير الطبيعية، لتدل على مدى التناقض الحاد الذي تفرزه، إذ سكانها بشر، لكنهم يفتقرون إلى الآدمية، ويسكنون مع الآخر في الفضاء الجغرافي نفسه، لكنه يقع على أطراف هذا الفضاء وهوامشه، ويقعون داخل المنظومة الاجتماعية نفسها، لكنهم في أدنى هذه المنظومة، وأسفل هرمها، وتصف الروايات حياتهم بال(قذرة) التي تجعل الموت يبدو طبيعيا ونتيجة حتمية لما يتراكم في هذه الأمكنة من تداخل بين القذارة واللاقذارة:

"يعتقد سرور أن الموت طبيعي في ظل حياة قذرة كهذه: ننام مع أوساخنا بلا حمام. نتبرز ونبول في الأمكنة نفسها التي نأكل فيها ويلعب فيها الأطفال" (المقري، 2011، ص 74).

ولا تتداخل في هذه الأمكنة القذارة بعكسها فحسب، ولا التبرز والبول والأكل ولعب الأطفال أيضًا، بل تتداخل فيها أحداث تشير إلى مدى تحويل فضاءات الحياة (السكن) هذه ببساطتها وقذارتها إلى فضاءات ترمز إلى الموت، بل وتحتوي الموتى، إذ يدفن سكانها أمواتهم فيها أيضًا، وهو دفن يدل على دفنهم لذواتهم:

"اكتشفت بقايا كوخ يلاصقه من الخلف، دون سقف أو باب، عادت تنتظر الصباح، حين سألت محمد عن بقايا الكوخ الخلفي، أخبرها ضاحكًا:

-لقد أمسى مدفنًا للموتى.

لم تفهم، لتنبري أمه موضحة:

-كل من يموت في درمنا، يحفر له ويدفن في أقرب كوخ مهجور، وإن لم يجد يدفن في كوخه، حتى يبقى مجاورًا لمن يحب" (عمران، 2019، ص 156، 157).

تتداخل مشاعر أهل الميت في لحظة عجز عند موت أحد أقاربهم، فيرفضون دفنهم، ومن ثم يتم الدفن في المسكن نفسه الذي يقيمون فيه، لإبقاء الميت بجوارهم كما تقول الروايات:

"رفضت عيشة أن يأخذ أحد جثة ابنها، أبقته في حضنها عدة أيام. بعد ذلك قيل إنها دفنته أمام مرقدها، في العشة، ليبقى إلى جوارها" (المقري، 2011، ص 75).

فإذا كان فعل الدفن، بهذه الكيفية، في هذه الأكواخ، يدل على حالة وفاء، ومحبة في النسق الظاهر، فإنه في حقيقته، على مستوى النسق المضمر فعل يشير إلى عجز الأخدام - المهمشين القائم على عدم القدرة على دفن موتاهم في المقابر المحددة للناس جميعًا؛ لعدم قبول أصحاب هذه المقابر دفنهم فيها، حتى وإن برر الملفوظ أعلاه أن دفنهم هو ناتج عن محاولة إبقائه قريبًا من ذويه:

"إن حياة الخادم لن تتغير... وحين يموت لا يُصلَّى عليه، ولا يدفن في المقابر المحددة للناس" (معطاس، 2021، ص 54).

إن هذه الأكواخ تقدم وصفًا دقيقًا للحياة بداخلها، فضلًا عن الوضعية الطبقية بين فئتين (المهمشة - المدينية)، وبين مكانين (المدينة - أطراف المدينة، والقرية وأطراف القرية، والوادي وأطراف الوادي)، أي بين مكان الآخر الذي يتصف بالكمال، والنقاء، والطمأنينة، ومكان الذات الذي يتصف بالوضاعة والهشاشة

والقذارة والنقص والثانوية والعبثية -من وجهة نظر الروايات-، كما أنها تصف بدقة الوضعية الاجتماعية للمهمش، في مقابل الوضعية الاجتماعية لأفراد المركز ومجتمعه، فإذا كان الكوخ مأوى للمخلفات البيولوجية للمهمش (البول وما يستتبعه)، ومدفنًا لموتاهم أيضًا، فإنه يدل على عدم الاستقرار، كما يدل على غياب الحياة الطبيعية لساكنيه، وعلى عدم القدرة على التوازن بين شخصياته التي تسكنه من جهة، وطبيعية علاقتها بالآخرين ممن لا يسكنون في هذه المحاوي والأدرام والأكواخ من جهة أخرى.

وهي من خلال هذا الفرز الدلالي تنماز عن مكان الآخر، ومن ثمَّ عن سلوكه ونمط حياته، لكنها برغم ذلك تبقى فضاءات يرتادها الآخر لقضاء حاجة بيولوجية (جنسية)، وليس للسكن أو البقاء، إنها فضاءات نزوات للآخر، يرتادها برغم شعوره بالخوف من معرفة الفئة التي ينتمي إليها:

"أول زيارة له إلى كوخ أبي خفية... جاء عند الظهيرة، وهو يضع شالاً حول فمه كلثام... فرحت فرحا ممزوجا بالخوف، أن تكون زيارته للهو كما تناهى إلى سمعي من بعض فتيات الحي! وهن يتحدثن عن الزيارات السرية للأسياد إلى قريتنا" (العريقي، 2020، ص 16).

إن دخول الآخر إلى هذه الأكواخ -كما يؤكد الملفوظ- يحيل إلى نسق مضمر يتمثل في رفض المجتمع لهذه الفضاءات ومن يدخل إليها، أو يقيم فيها من أبناء المجتمع الموازي (الطبقة الأعلى)، ويؤكد ذلك اللثام الذي يضعه (السيد) على وجهه ليخفي ملامحه خشية معرفة الناظر إليه، فضلا عن انكشاف غرض هذه الزيارات إلى هذه الأكواخ، فهي تظل زيارات سرية، لا يعرف أحد عنها سوى من يزور هذه الأكواخ، فضلا عن إشارته إلى عدم قابلية هذه الأكواخ للسكن من الآخر الزائر، أو البقاء فيها، إنها محطة لإشباع الرغبة فقط وليست للإقامة.

وإذا كانت هذه الأكواخ بهيئتها هذه (أكواخًا قذرة - مدافن موتى - محطات زيارة للجنس)، فإنها تقع في فضاءات موصوفة بعدم قابليتها للسكن والحياة والزراعة، كما أنها موصوفة بالهشاشة والتهالك، ومن هذا المنطلق تظهر فيها الأحداث التي لا يمكن أن تحدث إلا فيها، ولا يمكن أن تحدث في أمكنة أخرى لا تتسم بهذه الصفات، وتسكن فيها شخصيات لا يمكن أن تكون قادرة على أن تسكن في مكان مختلف عنها بنيويًّا واجتماعيًّا وثقافيًّا وماديًّا، لاختلافها عن الآخر نوعيًّا (أخدام)، ولونيًّا (سود)، وطبقيًّا (قبائل)، ومن ثم فإن مجموع الأحداث والعلاقات الواقعة في هذه الأمكنة تتجانس مع هذه الأكواخ من حيث عبثيتها وفوضويتها وهشاشتها، حتى أن وصف الأكواخ يكون هو وصف للساكنين فيها -كما سبقت الإشارة-:

"بدت المسافة قريبة، أكواخ متهالكة، تفصلها أزقة متعرجة وضيقة، قلة من الخوادم يجلسن أمام أكواخهن، أطفال عراة يتلاحقون هنا وهناك، وكلاب تلوب بحثا عمّا يؤكل" (عمران، 2019، ص 154).

إن الوصف للمكان في هذا الملفوظ قائم على النقل السينمائي لعناصر هذا المكان، وهو نقل مبني على مجال بصري مبئر للمكان الذي يحتوي مجموع هذه الأكواخ، من زوايا متعددة لا تهملها عين كاميرا السارد، بل تتتبع تفاصيلها بشكل متلاحق، وهي إذ تلاحق تفاصيلها لا تنقل تفاصيل هذا المكان فقط (أكواخ متناثرة متهالكة)، بل تعكس الحالة التي يعيشها إنسان هذا المكان، اجتماعيًّا، وماديًّا، فهو مكان متهالك، تفصله

أزقة ضيقة لتدل على مدى التقارب والضيق بين أزقة هذه الأكواخ، وهو مكان يكاد يكون فارغًا في لحظة معينة (قلّة من الخوادم...)، ويعكس مدى فقر أهل هذه الأكواخ من خلال ما تعكسه صورة الأطفال المتحركة (أطفال عراة..)، وكذلك بحث الكلاب عما تأكله (عدم وجود أكل، أو بقايا أكل)، ومن هنا يتأكد أن المكان (الكوخ/الأكواخ) هو ماهية الأكواخ ذاتها، وجوهر من يسكنون فيها.

وبالانتقال إلى أحد الأكواخ من الداخل، تنقل كاميرا السارد الراصدة لمكوناته وما ينتابها فيه من مشاعر، من خلال الشعور بهذا المكان وتفاصيله، فهو ضيّقٌ، يملأ أثاثه الغبار، ولا يستطيع أن يوفر الأمان لساكنيه، فضلا عن تكثيفه لحالة الفقر والكفاف لساكنيه: "فراش آخر تغطيه ملاءة متربة... جلست شادن تتأمل ضيق الكوخ، تتخيل إذا ما دهمهما أحد فلن تجدا زاوية تختبئان فيها. حتى أنه ليس للباب درفة تغلق... ظلت في ذهول غير مصدقة أن هناك من يعيشون بذلك الكفاف" (عمران، 2019، ص 156).

لذلك فالمكان ليس مجالًا بصريًّا أو هندسيًّا فحسب، بل هو تجربة اجتماعية معاشة تعكس وضعية الساكنين فيه، وسلوكهم، وطبيعة علاقتهم به سلبًا أو إيجابًا؛ وفيما يماثل ذلك، يؤكد باشلار (1987) "أن المكان الذي ينجذب نحوه الخيال لا يمكن أن يبقى مكانًا لا مباليًا، ذا أبعاد هندسية وحسب، فهو مكان قد عاش فيه بشر ليس بشكل موضوعي فقط، بل بكل ما في الخيال من تحيز" (ص 31)؛ لذلك فكاميرا السارد تصف وقع هذا المكان على عين (شادن...)، وما يبثه في وعيها من أحاسيس الشفقة والذهول المبنية على عدم التصديق بالوضع القائم للمكان وما يدل عليه من وضعية غير آدمية لساكنيه: (ظلت في ذهول غير مصدقة أن هناك من يعيشون بذلك الكفاف)، فضلًا عمّا يبثه فيها من خوف وقلق ناتجين عن غياب الحماية عن هذا الكوخ؛ لأن أهم وظائف السكن، مهما يكن، هو توفير هذه الخاصية التي لا يستطيع هذا الكوخ أن يوفرها (الأمان).

إن تجسيد الروايات لهذا البعد الاجتماعي (الفقر والهشاشة)، والنفسي (الخوف والشفقة)، لا يأتي عبثًا، بل يجسد العلاقة القائمة بين بنيتين متقاطبتين على صعيد المكان نفسه، وعلى صعيد سكان هذا المكان أيضًا، إذ مكان الذات/ الأكواخ والمحاوي والأدرام يفتقر إلى الأمن والطمأنينة وفرص الحياة الكريمة، ومكان الآخر وما يتعلق به من امتلاك لما هو غائب عن هذه الأمكنة من مال وجاه وسلطان وأمن نفسي واجتماعي، يجسد حالة الامتلاك المشبع، ويتفق هذا مع ما تشير إليه ليلى كاسخي بقولها: "إن اهتمام الرواية بهذا البعد الاجتماعي إشارة واضحة إلى نقد المجتمع وذكر كل إيجابياته وسلبياته دون تزييف أو تحوير" (قاسحي، 2024، ص 435).

وبالرغم من قذارة هذه المحاوي والأدرام وقربها من تجمعات النفايات، فإنها كثيرًا ما تتعرض للطمس والتدمير والخراب والتهجير لسكانها، أو محاولات ترحيل ساكنيها، وهو فعل لا يدل على مجرد التدمير والتهجير من قبل الآخر فقط، بل هو نسق ثقافي يحيل إلى فعل قائم على سطو المركز على الهامش في شكله الكلي، إنه زحف (طوفان) المركز على الهامش، وتدمير المركز لهذا الهامش وإلغاؤه من الخارطة، لتحل بدلًا منه بنايات الآخر الإسمنتية التي تلغي كل وجود لهذا المحوى، وتمحو كل ذكرى له:

"ازداد هذا العام زحف المباني السكنية في اتجاه المحوى. كما زحف في الاتجاه نفسه رجال الدين والسياسيون. كان الأخدام يعتقدون أن منطقة عصيفرة في تعز ستبقى آمنة من مثل هذا الزحف، وصاروا يشاهدون الجرافات وهي تمضي فاسحة المجال لمبان تتأسس على بقايا مساحات زراعية خضراء، وعشش تباعد المحوون فيها خوفًا من الجرف" (المقري، 2011، ص 96).

وهو زحف وتدمير يخلق القلق النفسي لدى الذوات، ويدفعها إلى عدم الطمأنينة، ومن ثم الرحيل نحو فضاءات أخرى قد توفر لهم الأمن النفسي والاجتماعي:

"زحف البيوت الإسمنتية نحو العشش يزيد من قلقنا؛ جرافات كثيرة سبقتها. لا يستأذنون أحدًا من الأخدام، في هدم عششهم، ومسح الأرض لتكون صالحة للبناء" (المقري، 2011، ص 118).

إنه فعل استعماري يفرض سطوة المركزي الأقوى على الهامشي الأضعف، وصاحب الأرض الذي يحاول أن يؤسس له بجذور بنايات ضاربة في أعماق الأرض، وطاعنة بأعالها السماء، وهم الطارئون على هذه الأرض الذين ينتظرون قدرهم باستسلام، يجتثون من عششهم البسيطة الهشة دون إذن أو تحذير أو إبلاغ مسبق.

فضلا عن أن محاولات الأهالي (السكان الأصليين) في (رواية حصن الزيدي) ترحيل الأخدام باعتبارهم دخلاء (غرباء)، تدل على عدم قبولهم للاندماج بينهم، ورفض مشاركتهم السكن في المكان الذي يعد ملكًا لهم، حتى في وقت احتلالهم لحيز يقع في هامش الوادي (أطرافه):

"يكلف عنصيف مجموعة من حرّاس الحصن الطواف على الأدرام وإنذار سكّانها بسرعة مغادرة الوادي، مع تهديد من يتخلفون منهم بهدم الأكواخ فوق رؤوسهم" (عمران، 2019، ص 11).

إن فعل الإنذار الذي يعقبه تهديد بهدم الأكواخ على رؤوس ساكنيه ممن لم ينفذوا أوامر المغادرة، قائم على القوة التي يمتلكها الآخر، في الوقت الذي لا يمتلك الذات (الخادم) أي قوة يمكن أن يقوم بها مقابل هذه القوة، وهو فعل قائم على الحسم المسبق بتنفيذ التهديد بالسلم أو بالقوة (الهدم).

إن مكان الإقامة يظهر مدى هشاشة حياة الأخدام، وثانويتهم في الحياة، ويبئر نظرة الآخر السلبية إليهم، ونظرتهم إلى الآخر أيضا، كما أنه يعكس الوضع الاجتماعي والأخلاقي والثقافي لهم مقابل الوضع الاجتماعي للذات، ويؤكد أن صورة البيت بوصفه رمزًا مختزلا لمكان الإقامة "لم تعد طوبوغرافية وجودنا الحميم" (باشلار، 1987، ص 32)؛ لأن هذا البيت لم يعد مصدر سكينة وطمأنينة، بل مصدر تعاسة وألم وافتقار ولا يوفر الأمن ولا الحماية لساكنيه.

المبحث الثاني: فضاء الانتقال

قد يكون فضاء الانتقال فضاءً عامًا (الشوارع - المستشفيات - المدارس... إلخ) تملكه الدولة، وهو فضاء محكوم بقواعدها وقوانينها، أو يكون فضاء خاصًّا يملكه الآخر ويهيمن عليه وتتجلى فيه سلطته وسطوته أيضًا، وهو في كلا الأمرين لا يكون فضاء هامشيًّا تتناوب فيه الذات والآخر الإقامة المطلقة، فلكل منهما فضاء سكنه وإقامته الذي لا يشاركه فيه الآخر، لكنه يكون مسكونًا بالوعي بالهامش، إذ هو -في شقه

الثاني- مكان الآخر، والآخر غير مهمش، لكنه يقوم بفعل التهميش، ويسهم في ترسيخ الوعي بالمهمش، من خلال خلق تقاطبية تفصل بين المكان الذي يملكونه والمكان الذي لا يملكونه، وبين ماضيهم وحاضرهم، وبينهم باعتبارهم عبيدًا، وبين الآخر باعتباره سيدًا؛ لذلك يأتي فضاء الانتقال في بعض الروايات موصوفًا بعالم الأسياد: "كان من الحري بأبي أن يفرح أني سأنتقل من عالمنا إلى عالم الأسياد" (العريقي، 2020، ص 19، 20).

إنه عالم الانتقال من حالة إلى أخرى، ويحمل هذا الانتقال، في هذا الملفوظ، قيمة التحول في الوضعية الاجتماعية والمعيشية كلها، لكنه تحول يبقي الذات (الخادم - الخادمة) تحت وطأة الشعور بتسيّد الآخر من منطلق تسيدهم على عالمهم/فضائهم (عالم الأخدام)، وهو الفضاء الذي يستبطن أيضًا دلالة المكان المنتقل منه (عالم الأخدام - العبيد)، أو يعزز حالة الشعور بالغيرية والهامشية لهؤلاء الأخدام الذين يشكل وصولهم إليه حالة من الإجبار والضعف والانكسار؛ إذ بهذا الانتقال أدركت الساردة مدى التهميش ومعاناتها من قبل في فضاء قريتها: "القرب منه أخذني إلى الأسف على الحياة التي عشتها، وجعلني أعرف معنى التهميش الذي لم أكن أشعر به يومًا وأنا في مجتمعي" (العريقي، 2020، ص 24).

إنه انتقال، برغم ما يخلقه من إدراك بماضي التهميش لدى الساردة، يكون بدرجة محورية من أجل تأمين (أساسيات المعيشة) الحياة، من خلال التسول أو العمل في مهن محتقرة، إنه انتقال المهمشين من أكواخهم ومحاويهم وأدرامهم في الأطراف إلى المراكز؛ للتسول وممارسات عاداتهم (المجبرين عليها) التي ترسخ مسألة غياب التكافؤ بين فضاءاتهم وفضاءات الآخرين من جهة، وبين سلوكهم وسلوك الآخرين وما يستتبعه من جهة أخرى، فضلًا عن ترسيخ الفرز العنصري والطبقي بينهم بوصفهم مكونًا للهامش، وبين الآخر بوصفه مالكًا للمركز:

"أقبلت امرأتان سمراوتان تتسولان بلهجة غير لهجة قريتنا، إحداهن كانت تحضن طفلًا قذرًا لا تمسح له أنفه، عرفت أنهما من أبناء سلالتنا، أحسست بالحرج من سوء نظافة الطفل وسلوك تلك المرأة وهي تمد يد الذل، وتلح بالطلب وهي تشكو الفقر. قلت لها: «لماذا لا تعملين وأنت في المدينة؟ ولماذا زوجك لا يعمل؟ رحت أتذكر نفسي وأنا في السابعة من عمري حين كنت أمر على قراهم للتسوّل مع أمي. ضحكت تلك المرأة وبانت الشّمّة البيضاء تحت شفتها السفلى، قالت: «أنت غريب على اِمْبلاد هذي؟ منو يرضي يُشغل امخادم معه؟ نحن ما معاناش شُغل غير امعمل في النظافة مع امبلدية وتعطينا ملاليم. أنت طيبة قولي لزوجك يعطيني" (العريقي، 2020، ص 30).

إن فضاء الانتقال لا يشير إلى غياب التكافؤ بين المكانين فحسب، ولا يرسخ مسألة التمييز والفصل فقط، بل يكون -علاوة على ذلك- وسيطًا بين مكانهم (المحوى)، والمدينة، ووسيطًا للاتصال بالآخر بشكل مباشر، وهو اتصال قائم على رسم العلاقة بينهما بكل دقة، على اعتبار أن المكان (مكان الذات أو مكان الآخر) هو الذي يخلق العلاقات، ويحدد نوعيتها؛ لأن الإنسان نفسه هو الذي "يُخْضع العلاقات الإنسانية والنظم لإحداثيات المكان" (كيسنر، 2003، ص 9)، ويجعل هذه العلاقات مرتبطة به بكل دقة، وهي علاقة

خادم بمخدوم، أو متسول بمالك للمال والجاه والحظوة الاجتماعية، ومن هذه الأمكنة المرتبطة بالانتقال المنازل التي تخدم فيها (الخادمة) أرباب تلك المنازل، "انتهت قبول، الشابة السمراء التي تعمل على خدمتهم في المنزل..." (الشعري، د.ت، ص 10).

يعكس المكان في هذا الملفوظ حالة العلاقة التي تربط الشابة السمراء (الخادمة) بمالكي المنزل الذي تعمل فيه، إنها تعمل على خدمتهم، وهذه العلاقة يمكن عدّها أرقى العلاقات بين الأخدام وسكان المدن والمراكز، إذ يظهر فيها شيء من القبول بالآخر ليكون موجودًا معهم في حيز جغرافي واحد، لكنه وجود مؤقت محكوم بأداء الخدمة التي تنتهي في لحظة زمنية محددة، ومن ثمَّ تنفصل الذات (الخادم) عن هذا الحيز الجغرافي لتعود إلى مكانها الرحمي الأصل (القرية أو المحوى)، ومن خلال هذه العلاقة تتجلى التقاطبية القائمة على مكان الآخر ومكان الذات، والخادم والمخدوم، والسيد والعبد.

وتكاد التقاطبية هي التي تحكم الأمكنة، وعلاقة الذوات ببعضها وبالآخرين، وتحدد أن بعض الشخصيات بإمكانها الوصول إلى كل الأمكنة في الوقت الذي لا تستطيع الأخرى الوصول إلا إلى بعضها، وإن وصلت إليها فإنها تبقى محكومة بالقاعدة التي بنيت عليها علاقة الذات بالآخر وسمحت من ثم لهذه الذات بالانتقال والإقامة معه بشكل مؤقت أو مستمر، للقيام بأداء فعل معين لا يمكن القيام به من الشخصيات كلها، ويتضح هذا في بعض الأمكنة، ومنها السوق، الذي يجسد هذه التقاطبية الحادة والعلاقات، يقول السارد:

"الجميع هنا يقتات بقايا الطعام، وتؤمِّن النساء القات لرجالهن من التسول في سوق المفرق، مفرق جبل حبشي هو أيضًا السوق الهدف للرجال حال تعسرت أحوالهم، كما كان يفعل أبي زوج أمي الثالث" (الشعري، د.ت، ص 16).

فجل من ينتقلون إلى هذا الفضاء إما أن يكونوا متسولين، أو جامعي بقايا الأكل والمخلفات من المطاعم، أو يمتهنون الأعمال المحتقرة من زاوية نظر الآخر المتخيل، ومن هذه الأعمال المحتقرة في الروايات مثلًا: (غسيل السيارات - كنس الشوارع - تنظيف مجاري الصرف الصحي... إلخ)، وهي أعمال تكون مرتبطة بالانتقال نفسه من مكان الذات إلى مكان الآخر، وتكون هذه الأمكنة هي التي تحدد هذه العلاقة، وترسم حدودها، وتتدخل في تحديد هوية المنتقل إليها نفسه، من حيث شكله، ونوعية الأعمال التي يقوم بها من خلال انتقاله إلى هذا المكان، وكذلك علاقته بمالك هذا المكان، وهي تفاصيل يجبر عليها الذات (الخادم)، ويمارسها قسرًا دون رغبة منه، لعلَّةٍ يحددها السرد بدقة تتمثل في الحياة (لكي تعيش)، يقول السارد:

"لكي تعيش هذه الملايين من البشر فقد اختاروا لأنفسهم مهنًا حصرية، (كنس الشوارع، تنظيف قاذورات الصرف الصحي، غسل السيارات، مسح الأحذية)" (معطاس، 2021، ص 10).

فالملفوظ يحدد أن العلاقة بين الذات والآخر فضائيًّا قائمة على الشرط، إنها علاقة شرطية بين الذات (هذه الملايين) والآخر (صاحب الأرض والمال والجاه) وفعل كل واحد منهما، في هذا الملفوظ، ويمكن تحديد ذلك بدقة من خلال الآتي:

لكي تعيش فقد اختاروا:

كنس الشوارع **(تنظيف مخلفات الآخر)**

تنظيف قاذورات الصرف الصحي **(الاستغراق في تنظيف قذارات مكان الآخر)**

غسل السيارات **(تنظيف أكثر الأمكنة خصوصية للآخر)**

مسح الأحذية **(الشعور بالدنو والوضاعة)**

وهذه أفعال لا تحدد خدمة المجتمع فحسب، مجتمع الذات والآخر على حد سواء؛ لأن الذوات تحدد وجوديتها الفضاءات (فضاء الذات) و(فضاء الآخر)، ففضاءات الذات -كما مر سابقًا- هي فضاءات يتساوى فيها الخادم والنفايات، بل إنه ينام في حيز جغرافي واحد مع القاذورات، في حين أن فضاء الآخر (فضاء الانتقال) كما يحدد الملفوظ أعلاه يجب أن يكون فضاء نظيفًا، ويضطلع بتنظيف قاذورات هذا المكان الذات (الخادم)، وهذا التنظيف لا يتحدد بالأمور الرئيسة والملحة فقط (المجاري - الشوارع)، بل يتجه نحو أبرز الأمور خصوصية للآخر (الأبيض - المركز) من أجل رسم حدود رفاهية الآخر (غسيل السيارات - مسح الأحذية)، وهي ليست أفعالًا يمكن الاستغناء عنها أو إيجاد بديل لها، إنها مرتبطة بالمصير الجمعي لأبناء هذه الطبقة (طبقة الأخدام)، التي تتمثل في الموت الذي يؤكده الملفوظ الشرطي (لكي تعيش)، وهو الملفوظ المفتاحي الذي تتأسس عليه الفضاءات والعلاقات كلها.

فإذا كانت عملية التسول والأعمال الأخرى الموصوفة بشكل مباشر (بالحصرية)، وبشكل ضمني بالوضاعة، تُظهر العلاقة في سياقها المتخيل قائمة على مالك للمال بمن لا يملك هذا المال، فإنها تخلق إحساسًا بالضعة والافتقار وفقدان الكرامة والأمن النفسي والأخلاقي لدى المتسول، في حين تعزز من مكانة المالك بوصفه مركزًا في حين يكون المملوك هامشًا في أبهى ما يمكن أن يكون عليه الهامش والمهمش والتهميش. ولئن كانت مسألة العمل (في أعمال وضيعة) تبرز لدى الذات ما يفتقر إليه من كرامة وأمن نفسي، فإنها أيضًا تخلق إحساسًا لدى هذه الذات بالدونية وعنصرية الآخر الذي لا ينظر إلى من يعملون في هذه المهنة نظرة طبيعية، بل ينظر إليهم نظرة احتقار ودونية:

"صرت أعرف الرفض الكامن في صدور الأخدام لكل من حولهم، لكنني لم أعرف واحدًا منهم، غير سرور، يمتلك مقدرة لغوية وفكرية، يستطيع بها التحدث بل والبوح بمعتقداته، على نحو ما فعل رباش، أمام محكمة لا تسمح عادة للأخدام بدخولها، حتى وإن كان لحضور جلسات تعقد لمحاكمة أهاليهم. يدخلونها، فقط، حين يقبلون كخدّام فيها، يكنسون القاعات والغرف من الأوراق التي يرمي بها الكتاب والمتقاضون، وينظفون الأوساخ التي تتناثر من الأحذية والأفواه" (المقري، 2011، ص 10).

لا تظهر هذه الأمكنة وفضاءات الانتقال مجرد وسائط للانتقال فحسب، بل يبدو الملفوظ في مجمله تفصيلا في مظاهر العنصرية التي ترسم حدود الخادم وحدود الآخر بالمقابل، فثمة أمكنة تبدو حكرًا على الآخر (الأبيض)، وأخرى لا يسمح للذات (الأسود) بالوصول إليها أو الدخول إليها بأي شكل كان، إلا إذا كان خادما يكنس وينظف الأوساخ التي تتناثر من الأحذية والأفواه.

إن حالة المنع من الوصول إلى مكان الآخر أو الدخول إليه للإقامة أو حتى للعبور وقضاء أمر ما، ولو بشكل ثانوي وعابر، يكون أمرًا قائمًا في الرواية المدروسة، إذ يرى الآخر أن الذات (الخادم) كائن غير مرغوب، ولا يمكن الإقامة معه في فضاء جغرافي واحد، كما لا يمكن السماح له بالعمل أو الاختلاط معه، ويتماثل هذا الأمر مع وضع الخادمة حمامة في رواية (حصن الزيدي) التي انتقلت من الأدرام للسكن في الحصن لخدمة أهل الحصن، وهو الحصن الذي لم يسمح للأخدام بالدخول إليه أو الاقتراب من بوابته، وتم قتل مجموعة منهم حينما حاولوا الاقتراب من بوابته:

"أما تلك الشابة السمراء، حمامة، فقد أمست داخل أسوار الحصن، وقد أُلْحِقَتْ بخادمات دار شبرقة، وذلك جل ما تحلم به أي خادمة، جدران كانت تراها بالأمس بعيدة المنال عالية تعانق السماء. واليوم تسكن بداخلها وتطل على الوادي من عليائها، متأملة أدرامًا تتناثر على الحافات كمقاور نمل" (عمران، 2019، ص 15).

إن دخول حمامة إلى الحصن، بوصفه المركز المضاعف الدال على المنعة والعلو والهيمنة؛ لكونه مكان تحصن الشيخ ورجاله (مركز المركز = مضاعفة) وهي الخادمة، قد مثل تحولا في حياتها، وكسر أفق التوقع؛ إذ الحصن حلم كل خادمة؛ لكون الانتقال إليه يعني التحول من الهامشية إلى المركزية، والخروج من الأدرام بقذارتها وهامشيتها وتناثرها والدخول في الحصن بترتيبه وصرامته وجديته ودلالته على القوة والامتلاك والتعالي، فضلًا عن كونه يمثل العلو مقابل الدنو والسلطة والجبروت مقابل الضعف والاستكانة؛ لذلك كانت تنظر إلى مساكن الأخدام من (عليائها)، والنظر من الأعلى فيه دلالة على التحول من الافتقار إلى الامتلاك، ومن الوضاعة إلى العلياء (عليائها)، فضلًا عن الاقتراب من الآخر، والمكوث معه في فضاء جغرافي واحد، وإن كان هذا الفضاء مقسما هو الآخر إلى مركز وهامش، لكنه ليس كهامش المحوى، وإن كان اقترابًا دالًا على العبودية القائمة على التعاقد من أجل العمل لصالح الآخر (خدمته)، وهو ما يعني عدم امتلاك الذات -أي ذات خادمة- حق الاقتراب من هذه الأمكنة أبدا، ما لم يكن لصالح الآخر.

إن فضاء الانتقال يظل مرصودًا، وممنوعًا إذا قَدِمَ هؤلاء الأخدام لغرض آخر غير الخدمة وأداء العمل (المنحط) في المكان المفتوح (الشارع مثلًا)، ولن يسمح لهم بالدخول إلى المكان المغلق (قاعة المرافعات - المحكمة مثلًا)، وإن كان لحضور المرافعات داخل قاعة المحكمة:

"أبلغْتُ أخته شمعة بما جرى. قلت لها، ولمن جاءوا معها إلى باب المحكمة، إنهم سيفرجون عنه بعد الظهر حال إكمال إجراءات إطلاق سراحه من السجن المركزي" (المقري، 2011، ص 10).

تتجلى في هذا السياق نزعة رفض الخادم، ومنعه من الوصول إلى المكان العام (قاعة المحكمة)، من خلال جعل الدخول إلى المكان أو العمل فيه حكرًا على مجموعة المركز (الأبيض) دون قيد، ومنع الأسود (الخادم) من الدخول إليه، لا لشيء إلا لأنهم أخدام. وهذا المنع ناتج عن التصور الجمعي عن الوضع الاجتماعي للخادم، والنظرة إليه، من حيث هو آخر قذر ونجس:

"بالنسبة لك الأمر سهل، الخادم لا يمكن أن يشتغل في مقهى أو مطعم.

-لماذا؟

يعتبرونه قذرًا، نجسًا، لا يليق بأمبو السماح له بمسك أواني طعامه أو شرابه" (المقري، 2011، ص 45).

فكما لا يسمح له بالدخول إلى قاعة المحكمة إلا خادمًا ماسحًا للقذارات، فإنه لا يسمح له بالعمل أيضًا في مطعم، لقذارته ونجاسته -كما يقول الملفوظ السردي- بل إنه لا يليق بالأبيض السماح له بمسك أواني طعامه أو شرابه، في مضاعفة لتوضيح الحدود بين الذات والآخر، وترسيخها، بشكل يعزز من العزلة بين الذات والآخر.

إن فضاءات الانتقال تظهر عجز الذات عن التخلص من غيريتها في نظر الآخر، وعجزها في جعل الآخر يتقبلها كما هي في فضاء واحد تسوده العدالة والمساواة، وتتحقق فيه النظرة الإيجابية، ولو في حدها الأدنى؛ لأنها تبقى حبيسة فضائها وإن انتقلت إلى غيره، إنه انتقال مؤقت لغرض مؤقت، لا تحلم بتعديلٍ ولو بسيط لوضعها، ولا تسعى إلى تحقيق الواقع الممكن على صعيد المكان، أو على صعيد الفعل الواقع ضمن هذا المكان، وهو ما يجعل فضاءات الانتقال تعكس نرجسية مزدوجة، يظهر من خلالها الأسود منحبسًا في مكانه (الهامش)، وإن حاول أن يخرج منه إلى فضاء الآخر فإنه لا يُقبل، ومن ثم يعود إليه، كما أن الأبيض يظهر منغلقًا في فضائه أيضًا ولا يتقبل هذا الآخر فيه، ويتماثل ذلك مع ما يؤكده فانون، إذ -من وجهة نظره- يظل "الأبيض منغلقًا في بياضه، والأسود منحبسًا في سوداه" (فانون، 2004، ص 12)، والبياض والسواد -هنا- ليسا مجرد لونين، إنهما موروث، وثقافة، وسلوك، وإرث صراع حضاري بين الأسود والأبيض، وصراع بين الذات والآخر، صراع يسهم في تعزيز الفصل الطبقي بين الفضاءين، والهويتين اللتين تستتبعهما، فإذا تمت معاينة فضاء المستشفى باعتباره فضاء انتقال للأسود، يضطر إلى الذهاب إليه للتداوي، فإن هذا الفضاء يمثل فضاء الإقصاء الحاد، والنرجسية المزدوجة من قبل الآخر، إذ يظل مدير المستشفى متعاليا لا يقبل معالجة الأخدام، في مرحلتين من رواية المنبوذين، الأولى عند تعرض (سالم) للعنف في قسم الشرطة وتهشيم يده جراء التعذيب، إذ لم تتقبل إدارة المستشفى إخضاعه للدواء إلا بعد الضغط من منظمة كانت تهتم بالإنسان بغض النظر عن لونه وعرقه وهويته السياسية، حينما كانت تتواجد في الوقت نفسه في المستشفى، لكن حينما اختفت المنظمة تم طرده من المشفى والتخلي عن مداواته؛ لأنه خادم/ مهمش، فضلا عن ممارسة الفعل نفسه مع زوجته زهرة حينما أصيبت بنوبة ربو حاد، إذ تم منعها من البقاء في غرفة من غرف المشفى، وأقيمت لها خيمة خارج المبنى، ليمثل هذا الفضاء فضاء معاديا يخلق الطبقية ويعززها، ومن ثم يعزز حالة الاغتراب عن المحيط، والقطيعة التامة معه.

وإذا كان المكان فعل وجود مطلق، وتشكيلا للهوية، فإنه في الحالتين (حالة الإقامة) وحالة الانتقال لا يعزز أيًّا من الإحساس بالوجود في حده الأدنى أو في امتدادات الوجود المطلق، أو الانتماء، بل يرسم حدود الطبقية، ومن ثم تحديد البعد الفارز لعنصري المجتمع على أساس اللون والبشرة، ومكاني الإقامة والانتقال. وهذا الفرز القائم بالفعل والقوة، يكون عاملًا من عدة عوامل تخلق لدى مجتمع الأخدام إحساسًا بالنقص، والعزلة، بالإضافة إلى مجموعة من عوامل متعددة تسهم في تكوين هذا الخادم، ورسم

عقد نقصه، وبناء شخصيته وتفاصيل حياته المستقبلية القائمة على الاستلاب، إذ استلاب الأسود ليس مسألة فردية، فإلى جانب تطوره السلالي وباعتباره كائنًا فردًا، هناك تَكَوُّنه الاجتماعي أيضًا (فانون، 2004، ص 13، 14).

إذ إنه ينشأ منذ بداياته الأولى على وعي معين، وفي حيز جغرافي معين، ويمارس سلوكا معينًا، فهو مقيم منذ طفولته في الأكواخ التي تتأسس على الحرمان، وعلى علاقة مضطربة مع الآخر مبنية على هذا الوعي، ومن ثم فإن الفضاء هو بالأساس تكوين اجتماعي، وعلاقات، وهو الفضاء الذي يخلق الشخصية ويصقلها، ويجعلها متماثلة معه، من منطلق المقولة الاجتماعية: "الإنسان ابن بيئته"، وكما تكون هذه البيئة يكون الإنسان القابع فيها، فضلًا عن مقولة الانعكاس التي تقول إن الوعي يكون انعكاسًا لواقع معين، والواقع هنا هو هذه الهشاشة والقذارة والاحتقار -من وجهة نظر السرد-.

إن هذا الفضاء يرسم الحدود بين الذات والعالم من جهة، والذات والعالم والآخر من جهة أخرى، وهي حدود تفصل ما يراه الآخر صالحًا لأن يكون مجسدًا في المكان، وما لا يمكن له أن يكون، وإن حاولت الذات تنفيذ عكسه فإنه سيرفضه لا محالة، بل سيسعى بكل ما في إمكاناته من سعة إلى رفضه وعدم قبوله، إذ ما يمكن أن يكون حقًا من الحقوق في الحكم الإنساني العام، فإنه من وجهة نظر الآخر لن يكون كذلك، ويجسده الحدث الذي سيكون قائمًا في مكان عام مثلا، في المستشفى كما رأينا، إذ التداوي لكل فئات المجتمع بغض النظر عن العرق والطائفة واللون، فإن اللون (الأسود هنا) سيكون سببًا لمنع هذه الحقوق، لا لشيء إلا من أجل اللون والعرق اللذين يقفان خلفه، فكما تم منع وصول الذات (الخادم) إلى المشفى، ومن ثم التداوي، فإن التعليم أيضًا باعتباره حقًا من الحقوق يتم منعه على الذات بسبب اللون والعرق أيضًا، إذ تكون المدرسة مساحة لإظهار ذلك:

"أنصحكِ أن تتخلي عن فكرة تعليم ابنتك في المدرسة.

-لم؟

-لأنها خادمة، كل يوم ستتعرض لإهانات ومعاملات سيئة، صدقيني لن يتركوها، سيستفزونها حتى يأتي اليوم الذي تنفر من المدرسة" (معطاس، 2021، ص 53).

إن العلة تكمن في (الصفة العنصرية: الخادمة)، والخادم والخادمة لون وعرق يثيران العنصرية لدى الآخر، ومن ثم يكونان مدعاة لمنع امتلاك الحقوق، أو مزاولة العمل -أي عمل كان- كما حدث لشمسان في رواية (غير مشروعة)، إذ كان فضاء القرية الذي هو في ملك الآخر مكانًا لتجليات العنصرية والتنمر وإنتاج التهم والصفات الموجهة للذات (شمسان)، منها (الخادم - القبيلي المليح - الزنوة)، وهي صفات تطعن في نسبه، وتتنمر على لون أسرته التي ينحدر منها (تربى فيها):

"وعند بلوغه، واندماجه في مجتمع معيب، بدأ الأخير يشن هجماته عليه وقذفه والتنمر في توصيفه: زنوة، قبيلي، مليح، كما يصفونه" (الشعري، د.ت، ص 10).

فإذا كان الإنسان حركة نحو العالم (فانون، 2004، ص 45)، فإن هذا العالم لا يتقبل الذات بوصفه إنسانًا بغض النظر عن عرقه ولونه، بل إنه يبني كل علاقاته بناء على ذلك، ويمنع كل ما يمكنه أن يختلف عنه، في سعي منه إلى إيقاف هذه الحركة من الذات نحو العالم، وإبقاء الذات سجينًا في فضائه؛ لأن نظرته إلى الذات وحركتها هذه قائمة على التصور المبني على أن الأسود والأبيض "يمثلان قطبي عالمٍ، قطبين في صراع دائم: إنه تصور مانوي حقيقي، للعالم... أبيض أو أسود، تلك هي المسألة" (فانون، 2004، ص 49).

إن التصورات الثقافية هي التي تبني الفضاءات، وتخلق، من ثمَّ، حركة كل من الذات والآخر نحو هذه الفضاءات، فينشأ بناء على ذلك ما يمكن القول عنه: معرفة كل منهما بحدود حركته ووعيه بهذه الحركة، ومن ثم يعرف كل منهما مكانته ومحيط حركته وما يستتبع كلًا منها من قبول أو رفض أو تمييز أو تنمر، لكن بالمقابل يمكن للآخر أن يخرق هذا الوعي وهذه الحدود، ويتسلل خلسة إلى فضاء الذات (المحوى أو القرية) للعبث واللهو -كما سبق-، لكن ليس للذات أن تخرق ذلك أو تتجاوزه، وإن هي فعلت فإن الأمر لا يتوقف عند حدود الرفض فحسب (كما حدث في حادثتي رفض التداوي أو حق التعليم سالفتي الذكر)، بل يكون مصيره تلفيق التهم ومن ثمَّ القيام بالعنف نحوه، كما حدث مع (سالم)، في رواية (المنبوذون)، فقد تم تلفيق تهمة سرقة الأحذية له: "شوهتم بلدنا أيها (الأخدام)، لم تتركوا مسجدًا دون أن تسرقوا أحذية مصليه، سأجعلك عبرة لغيرك أيها القذر" (معطاس، 2021، ص 58).

إن العلاقة بين هذه الأمكنة، تقوم على تعزيز الإحساس لدى الذات والآخر بدونية الأول ونقصه، وتسيد الثاني واكتماله، ومن ثمَّ دونية واكتمال مكان كل منهما بناء على ذلك، فضلا عن أن دونية الذات ونقصه لا يمران إلا عبر الآخر، وكذلك فإن دونية مكانه ونقصه لا يمران إلا عبر المقارنة بمكان الآخر والوصول إليه.

إن ما سبق من ملفوظات وما يستتبعها من دلالات تشير إلى تعصب يكنه عرق ضد آخر، بناء على اللون والسلوك والمكان الذي يسكن فيه، ويفرز من ثم حقدًا قائما على الكراهية والنبذ وعدم القبول بالذات حينما تنتقل إلى مكان الآخر، فقد كان هذا الذات عابرا لفضاء الآخر، لكنه لم يكن مقبولا، إذ تم رفض قيامه بأي عمل في فضاء الآخر، إلا إذا كان عملا لصالح الآخر (خادما في مزارع الشيخ: رواية حصن الزيدي)، أو عملا وضيعًا (تنظيف القذارات ومجاري الصرف الصحي وكنس الشوارع ومسح الأحذية والسيارات: روايات: (طعم أسود رائحة سوداء)، (المنبوذون)، (غير مشروعة)، (زهر الغرام)، فضلا عن رفضه تعليمه، أو مداواته (رواية المنبوذون).

إن هذه الفضاءات المتعلقة بالانتقال لم تكن مجرد فضاءات انتقال عادية، بل مسرحا فاعلا في تشخيص مكامن الخلل القائم بين علاقة الذات بالآخر، وتجسيد هوية كل منهما وتعزيز مشكلة تفوّق أحدهما على الآخر عرقًا ولونًا، في سبيل تراجع الأمر بالنسبة إلى الذات (الأسود) الذي لا يمتلك مكانًا بمعنى الامتلاك، لا مكان الإقامة ولا مكان الانتقال، فالمكان الذي يقيم فيه ملك مشاع يستطيع أي شخص أن يتخلص من امتلاكه له في أي لحظة كما حدث في رواية طعم أسود رائحة سوداء، كما أنه لا يستطيع أن

يمتلك أي حيز في فضاءات الانتقال، وهو ما يجعله كائنًا في فراغ لا يمتلك مكانًا، وهويته مفقودة، وكذلك لا يستطيع أن يكون كما يجب.

النتائج:

توصل البحث إلى الآتي:

لم يكن فضاء المهمش مجرد فضاء عابر، بل كان تجربة معاشة، طاردة، تخلق المعاناة، وتنعكس تبعاتها على الشخصيات المهمشة.

لم يكن فضاء الإقامة مثل مكان الانتقال، إذ كان الأول في حكم ملك الشخصية المهمشة (ملك مؤقت)، في حين كان الثاني في حكم الآخر وملكه، وقد كان يضطر الذات (المهمش) للانتقال إلى فضاء الانتقال من أجل العمل وتدبير قوت يومه، وكان يؤدي أعمالا توصف عادة بالمنحطة والقذرة مثل: التسول ومسح الأحذية وغسيل السيارات بأجر زهيد، أو من أجل السرقة.

كانت فضاءات الإقامة (الأكواخ والعشش والأدرام والمحاوي) فضاءات موصوفة بالقذارة والضيق وعدم الأمان، وهي صفات تعكس مدى عدم صلاحية هذه الفضاءات للحياة بطمأنينة وسكينة وأمان.

أن فضاءات الإقامة والانتقال قد استطاعت أن تشكل مجموعة من القيم والتقاطبات التي عززت من وضعية الذات ومنظور الآخر نحوه، كما استطاعت أن تشخص العلاقات العنصرية الرابطة بين الذات والآخر.

كانت فضاءات الإقامة (بالنسبة إلى الذات: الخادم) أمكنة غير صالحة للإقامة أو الزرع، كما أنها لم تكن مملوكة من قبله بشكل حاسم، لذلك تعرضت للهدم أو التدمير، كما تعرض سكانها للطرد أو التهديد بالترحيل.

كانت فضاءات الإقامة خاصة بالذات، وهي فضاءات تجلت فيها نظرة الآخر نحوهم، إذ هي أكواخ وأدرام ومحاوٍ وعشش تفتقر إلى أساسيات الحياة الكريمة، وفيها تتجلى مجموعة من القيم والتقاطبات، ولا ينظر إلى هذا المحوى إلا من خلال إحساس الذات بمنظور الآخر نحوهم، أو من خلال الآخر الذي يصفهم، أو من خلال المقارنة بين فضاء الذات (أطراف المدينة والقرية والوادي...)، وفضاء الآخر (المدينة - مركز القرية - مركز الوادي).

كانت فضاءات الانتقال فضاءات تتجلى من خلالها العنصرية، والكراهية للذات، والحقد الموجه نحوها.

لا يمكن للحدث أن يكون قائمًا إلا في مكان، كما لا يمكن للمكان أن يكون ذا معنى إلا من خلال فعل تتجلى من خلاله العلاقات الإنسانية، ومن خلال المنظور الموجه صوب المكان في حال اشتباكه بالشخصيات.

المراجع

أسعيدي، عادل، وبختي، عبد القادر. (2029). مرتكزات بنيوية لوسيان غولدمان التكوينية، *مجلة آفاق علمية*، *11*(4)، 499-515.

باشلار، غاستون. (1987). *جماليات المكان* (غالب هلسا، ترجمة؛ ط.3)، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.

بحراوي، حسن. (2009). *بنية الشكل الروائي: الفضاء - الزمن - الشخصية* (ط.2)، المركز الثقافي العربي.

جولدمان، لوسيان. (1993). مقدمة إلى مشكلات علم اجتماع الرواية (خيري دومة، ترجمة)، *مجلة فصول*، *12*(2)، 34-46.

الشعري، جمال. (د.ت). *غير مشروعة*، مؤسسة يسطرون للطباعة والنشر والتوزيع.

العريقي، أحمد قاسم. (2020). *زهر الغرام* (ط.1). دار راشد للنشر.

عمر، أحمد مختار عبد الحميد. (2008). *معجم اللغة العربية المعاصرة* (ط.1). عالم الكتب.

عمران، الغربي. (2019). *حصن الزيدي* (ط.1). دار نوفل.

فانون، فرانز. (2004). *بشرة سوداء أقنعة بيضاء* (خليل أحمد خليل، ترجمة؛ ط.1)، منشورات أنيب، ودار الفارابي.

قاسمي، ليلى. (2024). الوصف وتمظهرات الأبعاد الاجتماعية في رواية (غراميات شارع الأعشى) لبدرية البشر، *مجلة الآداب للدراسات اللغوية والأدبية*، *6*(4)، 2024، 420–438. https://doi.org/10.53286/arts.v6i4.2191

كيسنر، جوزيف. إ. (2003). *شعرية الفضاء الروائي* (لحسن أحمامة، ترجمة)، أفريقيا الشرق.

معطاس، رياض. (2021). *المنبوذون* (ط.1). مركز (د).

المقري، علي. (2011). *طعم أسود.. رائحة سوداء* (ط.2). دار الساقي.

المنصوري، المبروك الشيباني. (2014). *صناعة الآخر، المسلم في الفكر الغربي المعاصر من الاستشراق إلى الإسلاموفوبيا* (ط.1). مركز نماء للبحوث والدراسات.

References

As'ydy, 'Ādil, wbkhty, 'Abd-al-Qādir. (2029). Murtakazāt binyawīyah Lūsyān ghwldmān al-takwīnīyah, *Majallat Āfāq 'ilmīyah, 11*(4), 499-515.

Bāshilār, Ghāstūn. (1987). *Jamālīyāt al-makān* (Ghālib Halasā, tarjamat; 3rd ed.), al-Mu'assasah al-Jāmi'īyah lil-Dirāsāt wa-al-Nashr wa-al-Tawzī'.

Baḥrāwī, Ḥasan. (2009). *Binyat al-shakl al-riwā'ī : al-faḍā'-al-zaman-al-shakhṣīyah* (2nd ed.), al-Markaz al-Thaqāfī al-'Arabī.

Jwldmān, Lūsyān. (1993). muqaddimah ilá Mushkilāt ʿilm ijtimāʿ al-riwāyah (Khayrī Dūmah, tarjamat), *Majallat fuṣūl, 12*(2), 34-46.

al-Shiʿrī, Jamāl. (N. D). *ghayr mashrūʿah,* Mu'assasat ysṭrwn lil-Ṭibāʿah wa-al-Nashr wa-al-Tawzīʿ.

al-ʿUrayqī, Aḥmad Qāsim. (2020). *Zahr al-gharām* (1st ed.). Dār Rāshid lil-Nashr.

ʿUmar, Aḥmad Mukhtār ʿAbd-al-Ḥamīd. (2008). *Muʿjam al-lughah al-ʿArabīyah al-muʿāṣirah* (1st ed.). ʿĀlam al-Kutub.

ʿUmrān, al-gharbī. (2019). *Ḥiṣn al-Zaydī* (1st ed.). Dār Nawfal.

Fānūn, Frānz. (2004). *bshrh sawdāʹ Aqniʿat bayḍāʹ* (Khalīl Aḥmad Khalīl, tarjamat; 1st ed.), Manshūrāt anyb, wa-Dār al-Fārābī.

Kashi, L. (2024). Description and Manifestations of Social Dimensions in the Novel Romances of Al-A'sha Street by Badriah Albeshr .*Arts for Linguistic & Literary Studies, 6*(4), 420-438, https://doi.org/10.53286/arts.v6i4.2191

Kysnr, Jūzīf. I. (2003). *shiʿrīyah al-faḍāʹ al-riwāʹī* (Laḥsan Aḥmāmah, tarjamat), Afrīqiyā al-Sharq.

Mʿṭās, Riyāḍ. (2021). *al-manbūdhūn* (1st ed.). Markaz (D).

al-Muqrī, ʿAlī. (2011). *Ṭaʿm Aswad .. Rāʹiḥat sawdāʹ* (2nd ed.). Dār al-Sāqī.

al-Manṣūrī, al-Mabrūk al-Shaybānī. (2014). *ṣināʿat al-ākhar, al-Muslim fī al-Fikr al-gharbī al-muʿāṣir min al-istishrāq ilá al-Islāmūfūbiyā* (1st ed.). Markaz Namāʾ lil-Buḥūth wa-al-Dirāsāt.